(أثر المؤسسات التعليمية في ازدهار الحضارة الاسلامية)

د. مُحَمَّد علي مُحَمَّد اسماعيل،عضو هيئة التدريس بكلية الآداب– جامعة مصراتة

مقدمة:

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن من يتدبر آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول– ﷺ–، وآثار السلف الصالح، لا يجد صعوبة في العثور على أدلة واضحة وصريحة على مدى الاهتمام بالتعليم والعلم وأهله، وإن المتأمل في تاريخ الحضارة الاسلامية يجدها مهتمة بتعليم أبناء المسلمين من سن مبكرة، ويتضح هذا جليا من خلال انشائهم لمؤسسات تعليمية مختلفة، كان لها أبرز الأثر في رقيها وتقدمها؛ فكل مؤسسة تهتم بتعليم شريحة عمرية معينة، وسأتناول في هذا البحث هذه المؤسسات، بداية من الكتاتيب التي أعدت لتعليم صبيان المسلمين مرورا بالمساجد و وصولا إلى الرُبُط والزوايا ومنازل العلماء.

لقد رأيت أن يكون عنوان هذا البحث (أثر المؤسسات التعليمية في ازدهار الحضارة الاسلامية) لما له من أهمية في الوقوف على هذه المؤسسات التعليمية في ذلك الوقت، وسأتبع في بحثي هذا المنهج التاريخي السردي، للوصول إلى الهدف الذي أسعى إليه وهو: إبراز هذا الأثر والذي يكمن في عملية الترابط بين المؤسسات كافة، لاسيما مؤسستي الكُتاب والمسجد في تعليم كل منهما لشريحة عمرية معينة إضافة إلى الرُبط والزوايا ومنازل العلماء التي كانت متاحة للجميع.

المقالة I. أولاً: الكتاتيب

هي أول مراحل التعليم وتسمى الكُتاب أو المكتب. والمعلم الذي يدرسُ بها يسمى المؤدب. وهي مشتقة من التكتيب وتعليم الكتابة، فالكُتاب: "موضع تعليم الكتاب". ويعود تاريخ إنشاء الكتاتيب إلى عصر الدولة الأموية.

ومنذ ذلك الوقت استمر الخلفاء والأمراء بإنشائها، وعادةً ما يكون بناءها بجانب المساجد. وفي هذا يقول ابن حزم الظاهري المتوفى سنة (456هـ/1063م) "لم يبق بلدٌ إلا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف، وقرأ الأئمة القرآن، وعلمه الصبيان في المكاتب شرقاً وغرباً".

ويدل هذا النص على انتشار الكتاتيب واقترانها بالمساجد، فقد كان نموها نمواً طبيعياً، ودون تدخل من الدولة. والغرض الأساسي من بناءها تعليم الصبيان القرآن الكريم، وما يتصل به من علوم اللغة والأدب . ولم يكن للصبيان سن معينة لدخول الكُتاب، وتلقي العلم، فالأمر متروك لتقدير الآباء، فإذا وجدوا الصبي بدا بالتمييز والإدراك، دفعوا به إلى الكتاب.

ويبقى الصبي مع المعلم في الكُتاب لفترة غير محدود لكنها في الغالب تكون حتى يتم حفظ القرآن الكريم، وعلى الأغلب فإن الطفل الذي يريد حفظ القرآن الكريم بأكمله، يستمر مع المعلم حتى سن العاشرة وقد يبقى بعض التلاميذ حتى سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة، فإذا أتم هذه المرحلة قدم امتحاناً في الكتابة وفيما حفظ من القرآن الكريم، ومن أتم حفظ القرآن الكريم كان امتحانه يُسمى (الختمة) ثم يُمنح إجازة الكُتاب.

وتبتدئ الدراسة بالكُتاب مع شروق الشمس وتنتهي مع آذان العصر. وتُعطِّل الكتاتيب أيام الجمع والعيدين.

أما المواد الدراسية المقررة بالكتاب فكان القرآن الكريم أهم هذه المواد، بالإضافة إلى تعليم الكتابة، وفي هذا انقسمت الكتاتيب إلى قسمين، قسم يُعلم القرآن الكريم، والآخر لتعليم الكتابة والشعر، ويُدل على هذا التقسيم قول أبوبكر بن العربي المتوفى سنة (542هـ/1060م): "إن الصغير... إذا عقل بعثوه إلى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية فإذا حذقه كله أو حذق ما قدِّر له، خرج إلى المقريء فلقنه كتاب الله". ويدعم هذا الرأي الرحالة ابن جبير المتوفى عام (1217/614م) بقوله: "وتعليم الصبيان في البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط والأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل".

ويتفق مع الرأيين السابقين ابن بطوطة المتوفى عام (779هـ/ 1377م) بقوله "ومعلم الخط غير معلم القرآن، ويعلمهم كتابة الأشعار وسواها".

لقد انتشرت الكتاتيب في أرجاء العالم الإسلامي بانتشار المساجد، فهي عادة ملتحقةٌ بها، ومن أبرزها دار القرآن الرشائية بدمشق، وتُنسب هذه الدار إلى رشأ بن نظيف بن ما شاء الله المتوفى عام 444هـ/1052م) ويرجع تاريخ تأسيس هذه الدار إلى سنة (400هـ/1009م).

أما الكتاتيب التي تُدرس الحديث الشريف فمن أبرزها دار الحديث النورية، التي أسست عام (611/ 1214م) نسبة إلى نور الدين محمود زنكي المتوفى عام (569هـ/1173م) وكان ممن درَّسَ بهذه الدار

العالم الجليل شهاب الدين عبدالرحمن أبوشامة المتوفى عام (665هـ/1266م) والشيخ محي الدين يحيى بن شرف النووي المتوفى عام (677هـ/1278م).

وكانت الكتاتيب في هذه الفترة مقتصرة على الذكور دون الإناث، وذلك منعاً للاختلاط ولوجود بعض الصبيان ممن اجتازوا مرحلة البلوغ.

ولا يعني هذا حرمان البنات من التعليم في ذلك الوقت فقد كانت الفرصة متاحة للتعليم، وتعليمهن يتم في البيوت، وكثير منهن كُنَّ من بنات العلماء، ويتم تعليمهن بواسطة معلمين يُستأجرون لهذا الغرض. وقد شهدت هذه القرون نساء ساهمن في الحركة العلمية. وكان ممن نبغ منهن ستيتة بنت القاضي أبي عبدالله الحسين بن إسماعيل المحاملي المتوفاة سنة (377هـ/987م) والتي كانت عالمة بالحساب والفرائض والفقه والنحو، وقارئة للقرآن الكريم، ويروى أنها كانت أعلم الناس بمذهب الشافعي. ولقد رأى فقهاء المسلمين إن من الأمور الحسنة للأنثى، تعليمها القرآن والعلوم.

لقد كانت الكتاتيب بسيطة في شكلها، مفروشة في الغالب بالحصر، حيث كان يجلس الصبيان متربعين حول معلمهم، والأدوات التي يستعملونها في الدراسة لا تتجاوز المصحف الشريف وعدد من الألواح والأقلام، أما شكلها الخارجي فكان عبارة عن مربع بسيط، خالي من الزخرفة فكُتاب الأمس وكتاب اليوم لا يوجد فرقٌ كبير بينهما.

وطريق التعليم المتبعة بالكتاتيب، كانت طريقة التلقين، وتعتمد على الحفظ والتكرار، ثم يتعلم التلميذ الكتابة في اللوح، والصبي الممتاز هو الذي يجيد ما يَتقِن كلمةً كلمة، ويُكمل حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة، وكان لا يسمح للطلبة بدراسة الحديث إلا بعد حفظ القرآن. وهذا ما يدل عليه قول عبدالرحمن بن أبي حاتم المتوفى سنة (327هـ/ 938م): "لم يدعني أبي أشتغل بالحديث حتى قرأت القرآن".

أما طريق تعليم الصبيان المتبعة في دراسة الحديث فهي السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه بقراءة غيره، وهي الطريقة المستعلمة سلفاً وخلفاً.

فالقراءة على المعلم أثناء تعليم القرآن الكريم هي الأفضل، وطريقة ذلك أن يقرأ المعلم أمام تلاميذه بطريقة سليمة ثم يعيدها عليه كل تلميذ على انفراد، فيتأكد المعلم من سلامة نطق التلميذ، ومراعاة أحكام التجويد وحُسن الأداء.

أما طرق الحفظ فهي ثلاث: التكرار والميل والفهم ومراحل المذاكرة ثلاث: الحفظ والوعي والاسترجاع، فالوعي هو ما يعرف بالتثبيت، والاسترجاع هو عدم التعلثم.

لقد انتقد طريقة حفظ الصبيان للقرآن الكريم عن طريق الحفظ مؤرخين قدامي ومحدثين، فمن المؤرخين القدامى حاجي خليفة القائل: بأن الحفظ غير الملكة العلمية، وأن من كانت عنايته بالحفظ أكثر من الفهم، لا يحصل على موهبة الفهم وحُسن التصرف.

وكان ممن دافع عن طريقة الحفظ الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى عام (505هـ/1111م) بقوله: "إن القرآن ينبغي أن يُقدم إلى الصبي في أول نشأته ليحفظه حفظاً، ثم يتكشف له المعنى فيما بعد شيئاً فشيئاً، فمن فضل الله تعالى على قلب الإنسان أن شرحه للإيمان من غيره حاجة إلى حجة أو برهان ثم يكون بعد ذلك الاشتغال بتلاوة القرآن الكريم وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، فلا يزال اعتقاده يرسخ ويزداد بما يقرع سمعه من أدة القرآن وحججه".

وأما معاملة المعلم لتلميذه، فقد رأى المربون الأوائل من المسلمين، أن يعامل التلميذ باللين، فإن من كان تربيته بالعسف والقهر، فقد شخصيته، وحمله الضرب على الكذب، والخبث ويكون فيما بعد عالةً على غيره، ويصبح عاجزاً عن الدفاع عن شرفه وأسرته.

ولكن إذا تمادى الطفل في اللعب والعبث وانصرف إلى ذلك مهملاً العلم وهارباً من الكُتاب، كان على المعلم أن يقومه بالضرب ليعود إلى رشده مرة أخرى.

وفي هذا يقول الغزالي: "ينبغي أن يؤذن للصبي بعد الانصراف من الكُتاب أن يلعب لعباً جميلاً، يستريح به من تعب الكُتاب، فإن منع الطفل من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاؤه وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه".

ولقد حرص المربون المسلمون على تنظيم علاقة التلاميذ ببعضهم البعض، بتعويدهم على محبة بعضهم بعضاً، وأن لا يصادق إلا التلميذ المجد الورع، وصاحب الطبع المستقيم، ويتجنب الكسول والمهمل. وأن يفتخر الطالب بشيء على أقرانه مما يمتاز به، ولا يتوصل بشرف، أو سلطان من أهله إلى اغضاب من هو أقل منه، وأن لا يروع الصبيان، وأن يرد الإحسان بأحسن منه.

وأما في علاقة التلاميذ بمعلميهم فقد حرص المربون المسلمون على تعويدهم على احترام مشايخهم، والتأدب أمامهم ومنها ألا يمشي الطالب أمام معلمه، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يكثر الكلام، ويطيع أوامره في غير معصية.

وكان يطلق على من يقوم بتعليم الصبيان لقب المعلم والمؤدب المدرس والشيخ وغيرها من الألقاب، ولكن لقب معلم كان أهم هذه الألقاب، إضافة إلى لقب الفقيه. الذي كان من شروطه أن يكون رجلاً عاقلاً ومتزوجاً، أميناً على أولاد المسلمين، صحيح العقيدة.

وكان يساعد المعلم أحد التلاميذ المتميزين ويسمى (العريف) ووظيفته إعادة ما يقول المعلم ويساعد في شرح ما غفل عنه التلاميذ. وكان يشترط لمن يُعلِّم أبناء المسلمين أن يكون متحصلاً على إجازة تخوله التعليم، ولا يتحصل عليها إلا بعد أن يكون ملماً بأحكام التجويد، وأن يكون عارفاً بالخط والكتابة واللغة العربية.

ويتقاضى معلِّمو الكتاتيب أجوراً شهرية أو سنوية ولكنها كانت في الغالب أجوراً زهيدةً، قياساً بما كان يحصل عليه المؤدبون الذين يدرّسون أبناء الخلفاء والأمراء من أجور ومكافآت

المقالة II. ثانياً: المساجد

يُعد المسجد في الإسلام من معاهد الثقافة الأولى لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية، ولكثير من العلوم العقلية التي تنوعت وتطورت إبان عصور الحضارة الإسلامية.

والمسجد لغةً: اسم لمكان السجود. أما شرعاً: فهو كل موضوع من الأرض.

ويرجع تاريخ إنشاء المساجد إلى زمن نبي الله إبراهيم –عليه السلام– قال تعالى: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل..).

أما أول مسجد في الإسلام فهو مسجد قباء، والذي درس فيه الكثير من طلبة العلم، وأكثر عدد لهم كان في يوم الجمعة الثالث والعشرين من محرم سنة (387هـ/997م) حيث حضر أكثر من خمسمائة طالب علم،وكان يحضر مجلس أبو حامد الأسفراييني المتوفى سنة (406هـ/1015م) مابين ثلاثمائة وسبعمائة تلميذ ، كذلك مجلس العالم الجليل الجويني المتوفى عام (478هـ/1085م) والذي كان يحضره كل يوم ثلاثمائة من الأئمة وطلبة العلم.

لقد كان لاتخاذ المساجد معاهد للعلم، أن ضمن ذلك للعلماء حرية التعبير، فبابتعادهم عن رجال الدولة حافظوا على مكانتهم أمام الناس الذين يستمعون إلى دروسهم، ولو تبنت الدولة العلم الموجه، لفرضت على الناس أدعياء ودخلاء على العلم ولأفسدته بذلك، ولو قعد العلماء للتدريس في دور بنتها الدولة وتقاضوا أرزاقهم منها، لأصبحوا في عداد حواشيها وخدمها.

ولم يكن للعلماء المسلمين بالمساجد راتباً مقرراً، وإنما كانت تقدم لهم الهبات والجوائز من أهل الخير والإحسان.

وكان لتنوع العلوم في عصور الحضارة الإسلامية الزاهرة أن تنوعت حلقات الدروس بالمساجد، فبجانب كل عمود من أعمدة المسجد حلقة لعلم مختلف عن الحلقة التي بالآخر. ونظام الحلقات كان بأن يجلس الشيخ بجانب أحد أعمدة المسجد، على كرسي من خشب أو جريد، والطلبة مقابليه على شكل حلقة بترتيب معين، فلكل فئة مكان، فيجلس المعيدون والممتازون من الزوار على يمين الشيخ، الذي يبتدئ الدرس بالبسملة وحمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسوله وبتلاوة بعض الآيات من الذكر الحكيم، ثم يبدأ الدرس.

أما طرق التدريس المتبعة في تلك العصور، فهي مختلفة عن بعضها، ومن أهم هذه الطرق، طريقة السماع وهي أن يقرأ الشيخ من الكتاب، ويُلقي على الطلبة من ذاكرته، ولم يكن مسموحاً للطلاب أثناء إلقاء الدرس بالكتابة، والطريقة الثانية فهي طريقة العرض، وتكون بأن يقرأ أحد الطلبة من كتاب أستاذه، ومن أبرزمن تعلم بطريقتي السماع والعرض أحمد بن الحسين بن علي الرازي المتوفى سنة (375هـ/985م) فقد سمع من علماء دمشق عندما قدم إليها سنة (349هـ/960م) وأحمد بن عطاء الروزبادي المتوفى سنة (369هـ/979م).

والطريقة الثالثة هي طريقة الإملاء، وهي من الطرق الأكثر شهرة، وكانت تعقد مجالس الإملاء يوم الجمعة، وعندما تكون المجالس كبيرة يستعان بالمستملين، ومهمتهم إعادة ما يلقيه الشيخ ليسمعه البعيدون عنه، وقد يتعدد المستملون حسب كثرة الحاضرين، ويتراوح عددهم في الغالب بين الثلاثمائة والسبعمائة فرد. وتعتمد طريقة الإملاء، بأن يقوم الشيخ بإلقاء الدرس من غير الاستعانة بالكِتاب، ويقوم بإلقاء الدرس بالإبطاء في الإلقاء، حيث يُملي فقرة فقرة، ويَكتب الطلبة ما يمليه، ويكون شرحه وتوضيحه بعد فراغه من إملاء كل فقرة، ويكتب الطلبة الشروح والتوضيحات على الهوامش التي كتبوا فيها الأصول، فإذا أكمل الشيخ ما أملاه، يقوم بسماعه من الطلبة، حيث يصحح ما نساه ويضيف عليه، ويجيز ما كتبه الطلبة بالتوقيع على أكثر من نسخة مما كتبوه، ذاكراً بأنه قرأها، ويزيد أحياناً أن يجيز الطالب في رواية ذلك عنه، أو تدريسه بإذنه.

ومن أبرز مجالس الإملاء: مجلس مُحَمَّد بن يحيى الطائي المتوفى سنة (340هـ/950م).

ومجلس أبي سليمان الربعي المتوفى سنة (379هـ/989م) وكان يمليه بجامع دمشق.

والطريقة الرابعة هي طريقة الإجازة، وهي سماح الشيخ لطلبته المميزين بنقل العلم إلى الآخرين، وذلك بأن يعطيهم كتبه، ويجيزهم بإعطائها للآخرين فقد أجاز أبوعبدالله الحسين بن أحمد خالويه المتوفى سنة (370هـ/980م) لأحمد بن ثابت المتوفى سنة (360هـ/970م) تعلم القراءات.

ومن الطرق المؤثرة في النشاط التعليمي بالمساجد، طريقة المناظرة وأثر هذه الطريقة واضح في تقوية الحجة، والتمرن على سرعة التعبير، والتعود على الثقة بالنفس، والقدرة على الارتجال، وكان العلماء يشجعون طلبتهم على المناقشة والمناظرة، ويوجبون عليهم التمرن على المناظرات، وكان الطالب يخالف أستاذه في الرأي أحياناً مع مراعاة التأدب والاحترام.

ومن أبرز المناظرات المشهورة، مناظرة الحسين بن خالويه وأحمد بن الحسين المتنبي المتوفى (354هـ/965م).

ولم يكن هناك وقت معين للدراسة، فالأمر متروك للأستاذ وغالباً ما يكون الصباح أكثر الأوقات ملائمة، لكي يقوم الأستاذ بإلقاء دروسه، وتكون الدروس متوالية طوال اليوم ما عدا أيام الجمع والأعياد، وحين هطول المطر الغزير وبعض العطلات الأخرى. ولم تكن الدروس محددة بجدول معين، ولكن الغالب أن تكون دروس التفسير والحديث والفقه والنحو في ساعات البكور الأولى، والذهن في نشاطه، أما بعد الظهر فكان يخصص للعلوم العقلية، وفي المساء يتم الاستذكار والحوار بين الطلبة وأستاذهم.

ولم يكن هناك زمن محدد لإنهاء الدراسة، وكذلك الحال لطالب العلم فلم يكن مقيداً بسن معينة، أو عدد محدد من الكتب يتعين عليه قراءتها.

ثالثاً: الرُبُط والزوايا ومنازل العلماء

الرُبُط لغة: ربط الشيء يربطه، والرباط ما ربط به والجمع رُبط، والرباط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل رباطاً.

أما المعنى العام لهذه الكلمة فهو المكان الذي يرابط فيه جنود المسلمين للترصد إلى العدو والدفاع عن الحدود. قال تعالى: (يا أيها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ...). وقال أيضاً: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل...).

ولقد أمتثل المسلمون لقول ربهم، فأخذوا يبنون مواقعاً لهم على الشواطئ المقابلة للعدو، وعلى الحدود البرية الفاصلة بينهم وبينه، وعادةً ما يكون هذا البناء من طابق أو طابقين، ثم صار الرباط يطلق على

المكان الذي يقيم فيه المتصوفة والزهاد للعبادة ومجاهدة النفس، والحد من شهواتها، وصار فيما بعد مأوى للعجزة، والنساء والمطلقات والأرامل واليتامى والفقراء، ومسكناً للفقهاء الغرباء.

ولقد ساعد لأن تكون الربُط معاهد علمية، أن القائمين عليها أنشأوا فيها خزائن الكتب، وعينوا لها الخزان، وأوقفوا عليها الأوقاف، وكلفوا عليها من يقوم بصيانتها وترتيبها ومناولتها، وكان روادها من الزهاد والمتصوفة والرحالة في طلب العلم.

لقد تعددت الأربطة في أرجاء المشرق الإسلامي، ومن أبرزها الرباط الذي أسسته فاطمة بنت الحسن الرازي سنة (521هـ/1127م) ببغداد.

ورباط العالمة شهدة بنت أحمد بن الفرج الأبري المتوفاة سنة (574هـ/1178م) وأشهر هذا الرباط بدراسة الحديث النبوي الشريف. بالإضافة إلى أربطة الأخطية والزوزني ورباط زمرد خاتون أم الخليفة العباسي الناصر لدين الله.

ويُشير المقريزي إلى وجود أكثر من أربعين رباطاً بمصر من أشهرها: رباط الصاحب الذي أنشأه فخر الدين مُحَمَّد بن الوزير الصاحب بهاء الدين سنة (668هـ/1269م). ورباط البغدادية الذي بنته الجليلة تذكار باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة (684 هـ/1285م) ورباط أبي المنصور الذي عُرف باسم الشيخ صفي الدين الحسين بن علي بن أبي المنصور المالكي المتوفي سنة (682هـ/1283م) بالإضافة إلى أربطة الفخري والست كليلة ورواق ابن سليمان ورباط الآثار والأمزم والرباط العلائي.

وكانت الربط تُعنى عناية فائقة بالدراسة، حيث ظهرت فيها التآليف والتصانيف المهمة، من أبرزها كتاب (الناسخ والمنسوخ) في الحديث لأبي بكر الحازمي وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعري، وكتاب الفنون لأبي الوفاء على بن عقيل البغدادي المتوفى سنة (513هـ/119م)، وكتاب التاريخ المجاهدي لمؤلفه وجيه الدين أبي حفص السهروردي المتوفى سنة (532هـ/1127م) وكتاب عوارف المعارف الذي ألفه الشيخ شهاب الدين عمر السهرودي المتوفى سنة (632هـ/1227م). الذي يقول فيه مادحاً أهل الربط: "أعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادئة المهدية، ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف وهم على هدى من ربهم.

ولم تقتصر الربط على العبادة والزهد وتأليف الكتب والإقراء والتثقيف والمحاضرات، بل تنوعت واختلفت بتنوع الرجال واختلاف العصور، فقد نشأت في الربط ألحان خاصة من الموسيقى، والغناء، استخدمها الصوفية في حلقاتهم.

ومع انتشار التصوف والزهد، احتاج المتصوفة إلى أماكن أخرى، غير الربط فسميت هذه الدور بالخوانق، وهي كلمة فارسية معناها (بيت) وقيل أصلها خونقاه ومعناها البيت الذي يأكل فيه الملك، وكانت بداية ظهور الخوانق مع مطلع القرن الخامس للهجرة. وأول خانقاه في الإسلام أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي وسمي بدار سعيد السعداء وكان هذا سنة (569هـ/1173م). وقد انتشرت الخوانق في بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر بحكم أصلها الفارسي، وكانت قليلة في الشام ومصر. وكان يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر يشترط فيه حسن الهيئة وحسن الاعتقاد وحافظاً لنقول الفقهاء، وتأويل العلماء، واختلاف المذاهب، ونصوص الإمام أبي حنيفة النعمان ومن بعده من أصحابه.

أما عدد الصوفية في كل خانقاه فأختلف بأتساع الخانقاه وكثرت أوقافه، وتراوح العدد في الغلاب بين مائة صوفي وعشرة نفر، اشْتُرِط فيهم أن يكونوا من العارفين بطرائق الصوفية وآدابهم.

وقد بدأت الخانقاه تأخذ صورة المدرسة العلمية مع الأذكار التي كان يرددها الصوفية، فأصبح تذاكرها وحفظها بداية الدراسة بالخانقاه.

وأما الزاوية: فهي مأخوذة من الفعل إنزوى وهي اتخاذ ركن من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد، وقد أدرك الخلفاء المسلمون الأوائل، حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء، فأنشأوا لهم مساكن بالمساجد، ثم تطورت إلى أبنية صغيرة ومنفصلة عن المسجد، تُعقد فيها حلقات للدراسة، يرتادها مشائخ الطرق الصوفية.

وتنقسم الزوايا إلى عدة أقسام، منها الزاوية البسيطة وهي التي لم تبنَ على ضريح ميت، وتُنسب هذه الزاوية في الغالب إلى طريقة صوفية معينة أو شخص باسمه، وهي عبارة عن مجموعة أبنية متلازمة، منها ما هو مبيت لطلاب العلم، وغرفة للتدريس، ومكتبة وجامع، وسرعان ما تتحول إلى سوق أسبوعية ثم إلى قرية، وقد تتطور لتصبح بلدة وتكون الأرضي التي حولها وفقاً عليها في الغالب، وتستفيد من النذور التي ينذرها الناس لها، وعادة ما تكون من حيوانات وحبوب وأموال وما يتحصل عليه من طواف الطلبة بألواحهم على العشائر في المواسم، فيتوفر من ذلك مدخولاً ومدخراً لها.

أما النوع الثاني من الزوايا، فهي المعروفة باسم شخص ميت، وتنشأ غالب الأمر حول ضريحة، فتكتسب بذلك سمعةٌ عظيمة، حيث يكثر زوارها، وإيراداتها وسرعان ما تتحول إلى مركز عمراني كبير، والنوع الثالث ما يُعرف بالزاوية الطرقية ويه مكان لطريقة صوفية لها أوراد وأذكار خاصة بها.

لقد قامت الزوايا بدر كبير في الحث على طلب العلم، حيث كانت تدور فيها حلقات علمية لدراسة العلوم الشرعية واللغوية، وكانت متسعاً للمناقشات الحرة بين العلماء. ومما ساعد على هذا التقدم العلمي وجود مكتبات كبيرة بداخل هذه الزوايا. كان لها أثر عظيم في تثقيف روادها ومريديها، ومن أشهر هذه الزوايا، على رأي المقريزي – الذي يذكر أكثر من خمس وعشرين زاوية – الزاوية العدوية، نسبة إلى الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل الهكاري المتوفى سنة (555هـ/1160م) وزاوية القصري نسبة إلى الشيخ مُحَمَّد بن موسى القصري المتوفى في سنة (633هـ/1235م).

لقد كانت الزاوية منارة للعلم، ومدرسة لتربية أبناء المسلمين تحثهم على جهاد النفس، وعدم الركون إلى الدنيا، وملاءمة الخلوة مع النفس ومحاسبتها، وترك الملذات والشهوات، والمداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى، فكان لها بأن أصبحت معاهداً علمية خرج من أورقتها أفاضل العلماء المسلمين في تلك العصور، ولقد جرى التعليم بمنازل العلماء منذ وقت مبكر من تاريخ الإسلام، فالرسول –ﷺ– اتخذ من دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً يلتقي فيه بأصحابه، ليعلمهم أمور دينهم ويقرئهم ما أُنزل من آيات القرآن الكريم. واستمر المسلمين الأوائل يتعلمون في دورهم وفي المساجد، ومع مطلع القرن الرابع للهجرة، عرفت منازل العلماء بالدور التربوي على وجه العموم ومن أبرز هذه المنازل، منزل ابن سينا المتوفى سنة (428هـ/1037م) الذي كان يدرس فيه الطلاب المسلمين، ومنزل مُحَمَّد بن طاهر بن بهرام، المعروف بأبي سليمان السجستاني المتوفى سنة (394هـ/1003م). ودار الإمام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة (505هـ/1111م) الذي كان يستقبل فيها تلاميذه بعد تركه التدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور. ومن المنازل المشهورة بالعلم، دار على بن مُحَمَّد الفصيحي المتوفى سنة (516هـ/1122م). ودار أحمد بن مُحَمَّد السلفين المتوفى سنة (576هـ/1180م) فقد كان من العلماء الفقراء، حيث طاف البلاد حتى وصل إلى مدينة الإسكندرية، فتزوج من إمرأة ذات مال وأتخذ من بيته مكاناً للتعليم.

الهوامش:

(1) القابسي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين، ص 293.

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 166/19.

(3) ابن منظور: لسان العرب، 193/2.

(4) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، 50/2.

(5) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، 67/1.

(6) Khuda- Bakhsh; Contribution at history of Islumic civilization, p 263

ابن خلدون: المقدمة، ص 537.

(8) الأهواني: التربية في الإسلام ، ص 60.

(9) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1/ 342.

(10) القابسي: الرسالة المفصلة، ص 60.

(11) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، 1/ 463.

(12) ابن العربي: أحكام القرآن، دار المعارف، 3/ 291.

(13) ابن جبير: الرحلة، ص 272.

(14) ابن بطوطة: تحفة النظار، 213/1.

(15) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، 11/1.

(16) المصدر نفسه، 20/1، 23.

(17) القابسي، الرسالة المفصلة، ص 29.

(18) أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص 81.

(19) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، 152/4.

(20) ابن كثير: البداية والنهاية، 326/11.

(21) القابسي: المصدر السابق، ص 29.

(22) خطاب علي: التعليم في العصر الفاطمي الأول، ص 71.

(23) أحمد الأهواني: التربية في الإسلام، ص 84.

(24) ابن منظور، :مختصر تاريخ دمشق، 87/3.
(25) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلم، 2/ 401.
(26) علي سعيد إسماعيل: معاهد التربية الإسلامية، ص 183.
(27) أحمد الأهواني: المرجع السابق، ص 182.
(28) حاجي خليفة: كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون، 44/1.
(29) الغزالي: إحياء علوم الدين، 23/1.
(30) ابن خلدون: المقدمة، ص 494.
(31) السيد شحات حسن: تطوير التعليم الديني في مصر، ص 108.
(32) الغزالي : المصدر السابق، 63/3.
(33) الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق المتعلم، ص 10.
(34) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 21.
(35) الزرنوجي: المصدر السابق، ص 12.
(36) خطاب عطية: التعليم في العصر الفاطمي، ص 81.
(37) أمين، مُحَمَّد مُحَمَّد: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص 265.
(38) المرجع نفسه، ص 266.
(39) أحمد الأهواني: التربية في الإسلام، ص 198.
(40) مُحَمَّد أمين: المرجع السابق، ص 265.
(41) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية ، ص 469.
(42) الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص 26.
(43) علي محيي الدين الفرة: مفهوم المسجد في الإسلام ، ص 108.
(44) سورة البقرة، الآية 127.
(45) ميتز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 470/1.
(46) حسين مؤنس: المساجد، ص 37.
(47) ابن الجزري، غاية النهاية، 361/1.
(48) أحمد أمين: ضحى الإسلام، 53/20.

(49) وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، الأزهر تاريخ وتطوره، ص 263.

(50) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، 54/3.

(Tritton: Materiais of Muslim in The Midle Ages.P 32.51)

(52) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 3/ 182.

(53) ابن منظور: المصدر السابق، 92/3.

(54) السيوطي، جلال ادين: طبقات الحفاظ، ص 396.

(55) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب، 801/2.

(56) مُحَمَّد عطية الإبْرَاشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، ص 209.

(57) القفطي: إخبار العلماء، ص 207؛ كذلك: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 99/3.

(58) خوليان، ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص 118.

(59) خطاب عطية: التعليم في العصر الفاطمي، ص 137.

(60) المصدر نفسه، ص 138.

(61) ابن منظور: لسان العرب، 2/ 1560.

(62) سعيد إسماعيل: معاهد التربية الإسلامية، ص 595.

(63) سورة آل عمران، من الآية 200.

(64) سورة الأنفال، من الآية 60.

(65) ابن الجوزي: المنتظم، 100/10.

(66) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص 465.

(67) ابن الجوزي: المنتظم، 8/10.

(68) المصدر نفسه ، 10، 271.

(69) ياقوت الحمودي: معجم الأدباء، 280/5.

(70) المقريزي: الخطط، 427/4.

(71) المقريزي: المصدر نفسه، 428/4، 429، 430.

(72) ناجي معروف: المرجع السابق، ص 465.

(73) السهروردي: عوارف المعارف، ص 18.

(74) سعيد إسماعيل: معاهد التربية، ص 603.

(75) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، 182/1.

(76)السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 260/2.

(77)ميتز: الحضارة الإسلامية، 54/2.

(78) مُحَمَّد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص 208.

(79) عبدالغني محمود عبدالعاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، ص 239.

(80) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي والديني، 423/4.

(81) الكعاك، عثمان: مراكز الثقافة في المغرب، ، ص 53.

(82) المرجع نفسه، ص 54.

(83) عبدالبديع الخولي: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، ص 183.

(84) عبدالغني محمود: التعليم في مصر، ص 245.

(85) المقريزي: الخطط، 430/4، 435.

(86) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 3/ 1335.

(87) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 4/2.

(88) القفطي: أخبار الحكماء، ص 181.

(89) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 409/5، 415.

(90) مُحَمَّد سعد الدين: العلماء عند المسلمين، ص 217.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر:

1- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة(بيروت،1985م).

2- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،المؤسسة المصرية(القاهرة،1987).

3- ابن بطوطة، أبو عبدالله مُحَمَّد اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر(بيروت،1960م).

4- ابن جبير، أبو الحسين مُحَمَّد بن أحمد الكسائي، الرحلة، دار المعارف(القاهرة، 1975م).

5- ابن الجزري، شمس الدين مُحَمَّد بن مُحَمَّد، غاية النهاية في طبقات القراء،مكتبة الخانجي (القاهرة،1932م).

6- ابن الجوزي عبدالرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك،دار صادر(بيروت،1961م).

7- ابن خلدون، عبدالرحمن بن مُحَمَّد، المقدمة، دار الجيل (بيروت،1992م).

8- ابن حزم، أبو مُحَمَّد علي بن مُحَمَّد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الجيل (بيروت،1992م).

9- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب،تحقيق سهيل زكار (دمشق،1985م).

10- ابن العربي، أبوبكر مُحَمَّد بن عبدالله، أحكام القرآن، دار المعارف(القاهرة، 1964).

11- ابن عساكر،أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي(دمشق،1954م).

12- ابن كثير،أبو الفداء عماد الدين اسماعيل، البداية والنهاية، مكتبة المعارف(بيروت،1966م).

13- ابن مسكويه،أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة الشعب(القاهرة، 1985م).

14- ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم، 1- مختصر تاريخ دمشق، دار صادر (بيروت، 1956م).2 - لسان العرب، دار صادر (بيروت،م1956).

15- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون، مكتبة وكالة المعارف (اسطنبول،1941م).
16- الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم الأدباء، دار المأمون (القاهرة،1973م).
17- الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية بيروت، 1985م).
18- الزرنوجي، برهان الاسلام، تعليم المتعلم طريق المتعلم، دار المعارف (القاهرة،1959م).
19- الزركشي، مُحَمَّد بن عبدالله، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبوالوفا مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية (القاهرة،1963م).
20- السهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف(القاهرة،1939م).
21- السيوطي، جلال الدين، 1-طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية(بيروت،1983م).
22- طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلم، تحقيق : كامل بكري، دار الكتب الحديثة (القاهرة، 1986م).
23- الطبري، مُحَمَّد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك،تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل ابراهيم، المطبعة الحسينية (القاهرة،1954م).
24- الغزالي، أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد، إحياء علوم الدين، دار المعارف القاهرة، 1975م).
25- القابسي، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين، دار المعارف (القاهرة ، م1968).
26- القفطي،جمال الدين علي بن يوسف، أخبار العلماء بأخبار الحكماء (بيروت،1985م).
27- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (القاهرة، 1966م).
28- النعيمي، عبدالقادر بن مُحَمَّد، الدارس في تاريخ المدارس، مطبعة الترقي (دمشق،1951م)

ثانيا: المراجع العربية والأجنبية:

1- الإبراشي، مُحَمَّد عطية، التربية الإسلامية وفلاسفتها، مكتبة الشعب (القاهرة،1987م).
2- الأهواني، أحمد، التربية في الإسلام، دار المعارف(القاهرة،1968م).
3- أحمد، منير الدين، تاريخ التعليم عند المسلمين، عالم الكتب(القاهرة،1974م).
4- أمين، أحمد، ضحى الإسلام، مكتبة النهضة العربية(القاهرة،1982م).

5- أمين، مُحَمَّد مُحَمَّد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية(القاهرة،1980).
6- حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي والديني، دار المعارف (القاهرة، 1982).
7- حسن، السيد شحات، تطوير التعليم الديني في مصر، دار العلم للملايين (القاهرة، 1987م)
8- خوليان، ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة: الطاهر مكي (القاهرة،1990م).
9- سعد الدين، مُحَمَّد منير، العلماء عند المسلمين، دار المناهل (بيروت،1992م)
10- الخولي، عبد البديع، الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية (القاهرة، 1985م)
11- عبد العاطي، عبدالغني محمود، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف (القاهرة، 1980م)
12- علي، خطاب عطية: التعليم في العصر الفاطمي الأول، دار الفكر العربي(القاهرة1974م).
13- علي، سعيد إسماعيل: معاهد التربية الإسلامية، المكتبة العربية للدراسات الاسلامية (القاهرة،1986م).
14- الفرة، علي محيي الدين، مفهوم المسجد في الإسلام ،دار عكاظ (جدة،1975م).
15- الكعاك، عثمان: مراكز الثقافة في المغرب، معهد الدراسات العربية (القاهرة، 1987م).
16- معروف، ناجي، أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة (بيروت، 1985م).
17- مؤنس، حسين، المساجد، مكتبة الشعب (القاهرة، 1985م).
18- ميتز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: مُحَمَّد عبدالهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي (بيروت، 1967م).
19-وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، الأزهر تاريخ وتطوره (القاهرة، 1964م).
20-Khuda- Bakhsh; Contribution at history of Islamic civilization, Calacuta,1930..
21-Tritton: Materiais of Muslim in The Midle Ages,London,1957.